

الباهر في الدولة الاتابكية



## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي النعم الباهرة ، والآلاء الظاهرة ، والمنن الزاهرة ،  
الذي امتن على عباده ( بالاهتداء ) (١) ، وبتمليك الملوك وتامير  
الامراء ، فجعلهم سببا لكف القوي عن الضعيف ، والخذ للمشروف  
من الشريف ، نعمده على ما أنعم فأجزل ، وأحسن فأفضل ،  
ونصلي على ( سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ) .

أما بعد : والذي غمرنا من إنعام هذه الدولة العزيزة  
القاهرة (٢) ، والايام الاتابكية الزاهرة ، وشملنا من إحسانها ،  
وأنالتنا من عز سلطانها ، فقد اشتهر خبره ، وطاب مخبره ، وطار  
ذكره في الافاق ، وتحدثت به الرفاق ، لم يخل من مبرة تسديها ،  
ونعمة توليها ، ودرجة في العلا ترفع بضعنا اليها ، ومرتبة في  
الفخار تشرف بنا عليها ، وحالة من القرب تتضاءل دونها درجات  
المقربين ، ومنزلة من الوثوق بنا تقاصر عنها منازل المخلصين .  
وكان اكثر الموالي السعداء - قدس الله أرواحهم - إنعاما علينا ،  
وإحسانا إلينا ، المولى السعيد الملك العادل نور الدين أرسلان  
شاه (٣) رضي الله عنه وأرضاه ، وأكرم في الآخرة نذله ومثواه .

وألبس الله هاتيك العظام وإن  
بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا  
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت  
مثوى قبورهم روحا وريحانا

فانه طال ما انعم علينا وأعطانا ، ووصلنا وحبانا ، وقربنا  
واصطفانا ، وإلى أعلى مراتب الكرامة أعلننا ، مازال يوالينا  
الجميل ، ويوليننا الجليل ، ويقربنا الى حضرته العلية ، ويدنيننا من  
سدته السنية ، وبأسراره يخصنا ، ولمشورته يستخلصنا ، لم يخل  
يوما من بر رغب ، وإنعام لذفاسته غريب ، وكان ما يمدنا به من

طوله بحرا ، يقذف بالغنى ، ويجود بما لا يبلغه المنى . فلهذا كانت حياتنا من سيب أنعمه غدق الحياض ، مودقة الرياض ، ولم نزل نقابل قديم إنعامهم وحديثه باخلاص الدعاء ، وصدق العبودية والولاء ، وإظهار الشكر والثناء ، ونصح بمحضه ، ونؤدى مسنونه ومفترضه . كل ذلك صادر عن نيات في العبودية صادقة ، وطويات في الولاء غير مماذقة . وكنت عازما على أن أدون أخبارهم ، وأجمع آثارهم ، وأذكر ما من الله سبحانه على الاسلام والمسلمين وما حفظ من ثغورهم بجلادهم ، وما صب بهم على الفرنج من العذاب بأيديهم ، واستنقذه من ممالكهم بجهادهم ، وأخذ محاسن اعمالهم على ممر الدهور ، وتعاقب السنين والشهور ، جزاء لاحسانهم المستمر ، وطولهم الثابت المستقر ، وكانت الاعذار تحول بيني وبين ما أؤمله من هذا الغرض ، والعوائق تحيل جواهر أمكاني الى العرض ، ولما استأثر الله تعالى بالمولى السعيد نور الدين - تغمده الله الكريم برضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه - وقام بالملك بعه ولده المولى المالك الملك القاهر العادل العالم المؤيد المنصور ، عز الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، ابو الفتح مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن أقسنقر ، ناصر أمير المؤمنين - نسب كان عليه من شمس الضحى نورا ، ومن فلق الصباح غمورا ، لازالت الاقدار جارية على وفق اختياره ، ومقتضى إيثاره ، ولا برحت الحوادث عن جنابه الشريف مصروفة ، وأعين الكوارث عن دولته القاهرة مطروفة - وملا ذلك الدست ، وشرف ذلك الصدر ، وظهرت هذه الشمس بعد أفول ذلك البدر ، ولاغرو إذا أشبه الوالد الولد ، وقام الشبل في عزيمة الاسد :

وأنت من القوم الذين هم هم  
إذا زال منهم سيد قام صاحبه  
نجوم سماء كلما غاب كوكب  
بدا كوكب تأوي إليه كواكبه  
أضاءت لهم احسابهم ووجوههم  
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وما زال منهم حيث كانت مهالك  
تسير المنايا حيث سارت كتابيه

وحيث كانت الحال هذه ، تجدد ذلك العزم ، واحببت أن أجلو  
مناقب الموالى الملوك السعداء من أبائه عليه ، وأزف عقيلة محاسنهم  
إليه ، وأذكر من مشاهدتهم في نصره الدين ، وذبحهم عن حوزة  
المسلمين ، ما انتهى اليه علمي ، وأثبته قلبي : شعر

أخبار قوم بذوا وما نقضوا  
فالذكر يحيا وإن هم قبضوا  
جادوا فما قصرت أكنهم  
عن غاية في الندى ولا عرضوا  
وانتهزوا فرصة التمكن إذ  
تصوروا أن مكثها عرض  
في دولة القاهر الملك عز الـ  
بين عن كل من مضى عوض

قال : ليعلم قدر نعمة الله تعالى عنده أولا وأخرا ، ويقتنى بافعالهم  
واردا وصادرا ، وليتيقن أنه لم يكن لاحد من الملوك المتقدمين  
والخلفاء الراشدين ، مذقة بينية وندوية وتجربه في حفظ الممالك  
والرعايا شرعية وسياسية ، إلا وفي بيته الشريف - ثبت الله تعالى  
قواعده ، وشد من عزه معاقده - ما يضاهاها ، وظهر عنهم ما  
يماثلها ويماثلها ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل  
العظيم(٤) . لابل والله من قاس غيرهم بهم قاس الذم الى البحر ،  
والمخشلب(٥) إلى الدر ، والهشيم بخضرة الربيع ، والارض الجرز  
(٦) بنضرة الروض المريع ، ولكن القائل إياهم أراد بقوله :

لم تحمل الارض ملوكا مثلهم  
ولا اظلتها السماوات العلى

- ٦٣٦٠ -

معاد كل راغب وراهب  
إذا أتى بيارهم ألقى العصي  
لا ينطق العوراء في نابيهم  
ولا يحلون إلى الجهل الحبي  
لا يصطلى بنارهم عند الالقا  
ويصطلى بنارهم عند القرى  
هم النجوم طالع وأقل  
يعلولهم غرس إذا غرس ذوى  
هم الجبال امتنعت أن ترتقى  
هم البحور ليس يعلوها القذى  
إن سئلوا لم يبخلوا أو عاهدوا  
لم يغدروا أو ذكروا طاب الثنا

وذقلت أكثره عن والدي رحمه الله تعالى ، فإنه كان راوية حسناتهم ، وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم ، وقد فاتني كثير مما سمعته منه ، لانني جمعت هذا القدر من حفطي بعد وفاته ، ولم أثبته بقلمى في حياته ، ومع هذا فانني تعمدت ترك الاكثار ، لميل الناس في زماننا إلى الاختصار ، وابتدأت بذكر المولى الشهيد الكبير قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه ، لانه اول من ملك منهم فيما علمناه ، وذكرت ما حضره من الحروب قبل ملكه وبعده ، وكذلك ولده المولى الشهيد عماد الدين زنكي قدس الله روحه ، ولم اذكر أحدا غير ملوك هذا البيت الشريف ، إلا وفاة خليفة واستخلاف آخر ، وموت سلطان سلجقي وولاية غيره ، إذ الضرورة تدعو إليه ، وبالله التوفيق وهو المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل .

في ذكر ابتداء حال قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه

قال صاحب التاريخ (٧) . كان قسيم الدولة تركيا من اصحاب

السلطان جلال الدولة ركن الدين (٨) ملكشاه بن الب ارسلان واتبه ، وممن ربي معه في صغره وصحبه الى حين كبره ، فلما أفضت السلطنة بعد أبيه إليه ، وأفاضت تاجها عليه ، رعى لقسيم الدولة صحبته ، فجعله من اعيان امرائه ، وأخص أوليائه ، فصادف الاحسان أهله ، فرفع قدره واهلى محله ، واعتمد عليه السلطان في مهماته ، وافضى اليه باسراره في خلواته وجلواته ، ووثق به ووثقا حسده عليه سائر امرائه واجناده ، لما رأى من شجاعته وحزمه وسداده ، وتقدم عنده تقدما فاق فيه سائر الناس ، واختصه السلطان للقرب والايناس ، وزاد قدره علوا الى أن صار يتقيه مثل نظام الملك مع تحكمه على السلطان ، وتمكنه من المملكة بعلو المنصب وكثرة الاعوان ، فإشار على السلطان بان يوليه مدينة حلب واعمالها ، ويحكمه في عساكرها واموالها ، ويضيف إلى حكمه غيرها من البلاد الشامية ، وكان قصده أن يتخذ عند قسيم الدولة يدا ، ويبعده عن خدمة السلطان . ومن أعظم الدلائل على علو منزلته وسمو مرتبته لقبه ، وهو قسيم الدولة ، وكانت الالقاب حينئذ مصونة لاتعطى الا لمستحقها ، حتى ان السلطان - مع جلالة قدره - لم يكن يعرف الا بجلال الدولة ولم يكن لقبه في الدين مشهورا . وكان قسيم الدولة ايضا يقف الى جانب تخت السلطنة عن يمينه ولا يتقدمه احد ، وصار ذلك ايضا لعقبه من بعده . وهكذا كان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي رضي الله عنهما يقف

عند السلطان غياث الدين مسعود ، ولما توجه المولى السعيد شرف الدين ابن المولى المعظم قطب الدين قدس الله روحهما الى همذان - وبها حينئذ السلطان الب ارسلان بن طغرل بن محمد ، واتبه البهلوان ، هو أخو السلطان لأمه ، والبلاد له ويحكمه ليس للسلطان معه غير اسمه - وكان البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان عن مقامة ، وقال لشرف الدين : هذا لكم من قديم الزمان ليس لاحد غيركم أن يقف فيه مع حضوركم وكل هذا يدل على ما ذكرناه من جلالة قدر قسيم الدولة وعلو محله .

## ذكر مسير قسيم الدولة

مع فخر الدولة بن جهير الى الموصل بامر السلطان ملكشاه

في سنة سبع وسبعين واربعمائة ، سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير وزير الخليفة الى نيار بكر ليتملكها ويجلي عنها بنى مروان على ما ذكرناه في المستقصى في التاريخ ، وسير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير - وكان زوج ابنة نظام الملك - الى الموصل ، وكانت لشرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي ، وسير معه جيشا عظيما ، وجعل المقدم على الجيش قسيم الدولة اقسدقر ، وتقدم الى عميد الدولة ليكون فعله في حروبه وحصاره برأي قسيم الدولة ، لمعرفة بتدبير الجيوش وحصار البلاد وشجاعته في حروبه كلها ، فساروا نحو الموصل ، فلقبهم في الطريق الامير ارتق بن أكسب التركماني - جد ملوك الحصن (٩) ومارين يومنا هذا - ومعه خلق كثير من التركمان فاستصحبوه معهم - وكان مشهورا بالعقل والدين - فلما وصلوا الى الموصل حضروها وضيقوا على من بها وأرسل ارتق الى من بها يشير عليهم بالدخول في طاعة السلطان وترك العصيان عليه ، وخوفهم عاقبة فعلهم إن امتنعوا واصرروا على الخلاف ، فقبلوا نصحه واذعدوا له واطاعوا وسلموا البلد ، فأخذ عميد الدولة ما كان به من مال شرف الدولة وأهله ونخائره . وكان السلطان عازما على اخذ جميع البلاد التي لشرف الدولة واستئصال ملك العرب ، فأتاه الخبر بخروج اخيه تكش عن طاعته بخراسان واجتماع العساكر عليه ، فارسل مؤيد الملك بن نظام الملك الى شرف الدولة فطيب قلبه ، وذكر له ان أباه نظام الملك قد شفع فيه الى السلطان فأجاب شفاعته ، وأمره بالسير معه الى خدمة السلطان ، فسار صحبته ولقي السلطان بالبوازيح (١٠) فخلع عليه ورد عليه الموصل وجميع ما اخذ له من اهل ومال ، وسار السلطان نحو خراسان فظفر باخيه .

## ذكر ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها

كانت حلب لشرف الدولة مسلم وكانت انطاكية للروم قد ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . ولم يزالوا بها الى سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، وكان صاحبها حينئذ روميا يسمى الفرديروس (١١) فسار عنها الى بلاد الروم ، فكتب اهلها الى سليمان بن قتادش - وهو جد هذا الملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وغيرها - وراسلوه ليحضر عندهم ليسلموا إليه أنطاكية ، فسار إليهم وتسلم البلد وملكه ، وقتل من أهله خلقا كثيرا ، وأخذ منهم مالا عظيما . وكان لشرف الدولة على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها منه كل سنة ، فلما ملك البلد سليمان ، أرسل إليه شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم ، وتهده وخوفه عاقبة ، معصية السلطان ، فأعاد الجواب : إنني في طاعة السلطان وهذا الفتح بسعادته ، والخطبة والسكة له في ، ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم ، فأعاد شرف الدولة الجواب يتهدده ويلزمه بالمال ، فأخذت سليمان الحمية فسار إلى بلد شرف الدولة ونهبه ، فقصده الذين نهبهم واستغاثوا إليه ، فقال لهم : صاحبكم أحوجني إلى ما فعلته ، وإلا فليس من عادتي اخذ مال مسلم ورد عليهم ما أخذ منهم . فجمع شرف الدولة العرب والتركمان عن بكرة أبيهم وسار نحو أنطاكية ، فلقية سليمان في أول أعمالها ممايلي حلب في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فاقتتلوا أشد قتال فانهزمت العرب والتركمان عن شرف الدولة فاضطر إلى الهزيمة فقتل منهزما وذاق عاقبة بغيه وكان ملكه من السننية بالعراق على نهر عيسى إلى مذبح وما بينهما من البلاد الفراتية : كهيت ، والانبار وغيرها ، وملك الموصل ، وديار ربيعة ، والجزيرة بأسرها ، وملك مدينة حلب . وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة ولما قتل شرف الدولة قصد سليمان مدينة حلب فحصرها فإرسل اليه اهلهما : اذا انفصل الامر بينك وبين تاج الدولة تتش ، سلمنا اليك البلد . وكان تاج الدولة له

مدينة دمشق وذواحيها قد اقطعه اياها اخوه السلطان ملكشاه ، وقد سار نحو حلب بعد قتل شرف الدولة ليملكها ، وكان معه أرتق بن أكسب - وقد اقطعه تاج الدولة البيت المقدس - فلما ارسل اهل حلب الى سليمان ماذكرناه ، سار نحو تاج الدولة فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا صبر فيه الفريقان ، وانجلى الحرب عن هزيمة عسكر سليمان ، وثبت هو فقتل . وسار تاج الدولة الى حلب فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة ، فكاتب اهلها السلطان ملكشاه ليسلموها اليه وهو بالرها ، وكان سبب مسيره اليها ، ان ابن عطير النميري كان قد باعها من الروم بعشرين الف دينار وسلمها اليهم ، فدخلوها واخربوا المساجد واجلوا المسلمين عنها ، فسار ملكشاه اليها هذه السنة فحصرها وفتحها واقطعها الامير بزان ، فلما اتاه رسل اهل حلب بالتسليم اليه ، سار اليهم فلما بلغ خبر مسيره الى تاج الدولة رحل عن حلب الى دمشق ، ووصل السلطان الى حلب ، وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي - وهو ابن عم شرف الدولة - فسلمها الى السلطان بعد قتال ، واعطاه السلطان عوضا عنها قلعة جعبر ، وكان قد ملكها هذه السفارة من صاحبها جعبر القشيري وكان شيخا كبيرا أعمى ، فبقيت بيد سالم واولاده الى ان اخذها منهم الملك العادل نور الدين ابو القاسم محمود بن زنكي رضي الله عنهما ، على ما ذكره ان شاء الله تعالى . فلما ملك السلطان حلب ، ارسل اليه الامير نصر بن علي بن المقلد بن مذقذ الكناني صاحب شيزر و دخل في طاعته وسلم اليه لاذقية ، وفامية ، وكفر طاب فاجابه ملكشاه الى الصلح وترك قصده .

ثم إن نظام الملك اشار على السلطان بتسليم حلب واعمالها ، وحماه ، ومنبج ، ولاذقية ، ومامعها الى قسيم الدولة اقسنقر فاقطعه الجميع ، فبقيت بيده الى ان قتل سنة سبع وثمانين واربعمائة ، على ما ذكره ان شاء الله تعالى .

واقطع السلطان مدينة انطاكية ياغي سيان ، وهو صاحب صلاح

الدين محمد الياغسياني الذي صار امير حاجب المولى الشهيد عماد الدين زنكي .

ولما استقر قسيم الدولة في الشام ، ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده ، وان السلطان استدعاه الى العراق فقدم اليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب فعاد إليها ، ولما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشا الى تكريت فملكها .

### معرفة حسنة

يذكر اهل التواريخ انه ليس من مشهور العرب من قتل هو وابوه وجده وجد أبيه ، غير عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ، فان عبد الله قتله الحجاج ، والزبير رضي الله عنه قتل يوم الجمل ، وقتل العوام وخويلد في الجاهلية ، وليس مشهور الترك من هو هكذا ، غير قليج ارسلان فقد قتله جاولي سقاووا بالخابور غريقا ، وهذا سليمان قتله تاج الدولة تتش كما ذكرناه . واما ابوه قتلمش بن ارسلان يبغو بن سلجوق فقتله صاحب مدينة استوا ( ١٣ ) لانه جمع خلقا كثيرا من الاتراك وخرج عن السلطان الب ارسلان ، فلقبه صاحب استوا فقاتله ، فانهزم قتلمش وسقط عن فرسه فمات . واما ابوه ارسلان يبغو بن سلجوق ، فان صاحب غزنة من اولاد محمود بن سبكتكين ( ١٤ ) اخذه فقتله ، واخذ ابن قتلمش حتى خلصه الملك داود والد السلطان الب ارسلان لما ملك خراسان .

ذكر قتل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه رحمه الله

في عاشر رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة ، قتل الوزير نظام الملك ابو علي الحسن بن اسحاق ، قتله صبي ييلمي بعد الافطار ،

وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والامراء والفقراء وغيرهم من اصناف الناس ، وحمل في محفة لذقرس كان به الى خيمة الحرم ، فلقى صبي يلمي مستغيثا به فقربه منه ليسمع شكواه فقتله ، وقتل الصبي ايضا ، فعدمت الدنيا واحدها الذي لم تر مثله . وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين ، انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام كأنه أتاه واخذه من محفته ، فاستبشر نظام الملك بذلك ، واظهر السرور به ، وقال : هذا أبغي واياها اطلب ، وبلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم ينله غيره .

وكان عالما ، فقيها ، بينا ، خيرا ، متواضعا عادلا يحب اهل اللين ويكرمهم ويجزل صلاتهم . وكان اقرب الناس منه واحبهم اليه العلماء ، وكان يناظرهم في المحافل ، ويبحث عن غوامض المسائل ، لانه اشتغل بالفقه في حدائته مدة .

واما صدقاته ووقوفه فلا حد لها ، ومدارسه في العالم مشهورة ، لم يخل بلد من شيء منها ، حتى جزيرة ابن عمر - التي في زاوية من الارض لايؤبه لها - بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهي الان تعرف بمدرسة رضي اللين .

واعماله الحسنة ، وصنائعه الجميلة المذكورة في التواريخ ، لم يسبقه من كان قبله ولا ادركه من كان بعده ، رحمه الله ورضي عنه .

وكان من جملة عباداته انه لم يحدث الا توحا ، ولا توحا الا وصلى . وكان يقرأ القرآن حفظا ، ويحافظ على اوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة ، حتى انه اذا اغفل المؤذن أمره بالاذان ، واذا سمع الاذان امسك عن كل ما هو فيه ، واشتغل باجابته ثم الصلاة .

واما ابتداء امره ، فانه كان يحب التصرف ، فاتصل بامير كان صاحب بلخ يعرف بالامير ياخر - وكان مقدم عسكر الملك جفري

بك داود جد السلطان ملكشاه - وكان ياخر لايعطيه الا مايقوم به حسب ، وفي اخر كل سنة يصادره بما يفضل معه فضجر من هذه الحال ، واخفى اولاده - وكان له فخر الملك ومؤيد الملك - وركب فرسه وهرب . وكان فرسه بطيئا ، فدعا الله تعالى ان يرزقه فرسا يخلصه عليه ، فلم يسر الا قليلا حتى لقيه تركماني تحته فرس جيد فسلمه اليه واخذ فرسه عوضه ، وقال له : يا حسن انكر هذه . قال نظام الملك : فلما ركبت الفرس قويت نفسي ، وعلمت ان السعادة قد جاءت ، ووصلت الى مرو ، ودخلت على الملك داود فاخذ بيدي وسلمني الى ولده الملك عضد الدولة الب ارسلان وقال : تسلمه واتخذه والدا لاتخالفه . ثم ان الامير ياخر سأل عني فلم يجدي واخبر بهربي ، فسار بذفسه في طلبي حتى دخل على الملك داود فطلبني منه ، وقال : اخذ مالي وهرب ، فقال له داود : حديثك مع ولدي ألب أرسلان ، فلم يجسر يخاطبه فيه . ووزر نظام الملك للسلطان الب ارسلان قبل ان يلي السلطنة في حياة عمه السلطان طغرل بك ، فاما توفي طغرل بك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه الب ارسلان ، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش والكثرة ، واستقرت السلطنة له ، وبقي معه الى ان توفي . ثم وزر بعده لابنه السلطان ملكشاه الى ان قتل . وكان قد تحكم عليه الى حد لايقدر السلطان على خلافه لكثرة ممالিকে ومحبة الامراء والعساكر له ، وميل عامة الناس وخاصتهم اليه بحسن سيرته وعدله .

ذكر وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان رضي الله عنه

في منتصف شوال سنة خمس وثمانين واربعمائة توفي السلطان ركن الدين ملكشاه رضي الله عنه . وسبب وفاته انه اكل لحم صيد فاكثر منه ، فأخذته حمى حادة فتوفي منها ( ١٥ ) وكان مولده في جمادى الاولى سنة سبع واربعين واربعمائة ، فكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة وستة اشهر . وكان ملكه نحو عشرين سنة .

وكان احسن الناس صورة ومعنى ويكفيه ان من جملة حسناته ، نظام الملك ، وكانت سعادتهما متقاربة . حكى لي والذي رحمه الله تعالى - ثم اني رأيت ما حكاه بعد ذلك مذكورا في كتب التاريخ - قال : ان السلطان ملكشاه عتب على نظام الملك في شيء فعله بعض اولاده ، وقال له في جملة عتبه : ان كنت شريكى في الملك فعرفني ، وان كنت وزيرى فاسلك ما يسلكه الوزراء والاطبقت دواتك وعزلتك ، فقال للرسول : قل للسلطان عني : ان كنت ماتعلم انني شريك فاعلم ، واذكر ما فعلت معك حين خرج عليك اعمامك واخوتك ونازعوك في الملك وكادوا يقهرونك ، فتوليت ردهم بذنبي ، وقمت المقام الذي تعلمه حتى صفا لك الملك والسلطنة ، وذكر له عدة مواقف جزع فيها ملكشاه وخفاف ، فردها نظمام الملك بالرأي والحرب ، فان كان هذا كلامه ذلك الوقت . واما قوله انه يطبق الوقت دواتي فقل له : اعلم ان هذه الدواة متعلقة بزر قلذسوته التي على رأسه ، فمتى اطبق هذه سقطت تلك. فيقال ان هذا كان سبب قتل نظام الملك ، وان السلطان وضع ذلك الديلمي حتى قتله ، وصح قول نظام الملك ، لما طبقت دواته لم يعيش السلطان غير خمسة وثلاثين يوما ومات . وكان هذا كالكرامة لنظام الملك . وكانت مملكة السلطان ملكشاه قد اتسعت اتساعا عظيما ، اطاعته البلاد جميعها وملكها ، وخطب له من حدود الصين الى الداروم من ارض الشام ، واطاعه اليمن والحجاز ، وكان يأخذ خراج ملك القسطنطينية كل سنة ، واطاعه صاحب طراز واسبيجاب ، وكاشغر ، وبلاساغون وغيرهما من الممالك البعيدة ، وملك سمرقند وجميع ما وراء النهر . ثم ان صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان اليه ، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه ، ولم يزل حتى ظفر به واحسن اليه واستصحبه معه الى اصفهان . وعمل السلطان من الخيرات وابواب البر كثيرا ، منها ما اصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة ، وحفر من الانهار ، وبنى مدرسة عند قبر الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة . وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر

ثم سار الى نصيبين فحصرها ، فسبه اهلها ففتحها عنوة وقهرا ، وقتل بها خلقا كثيرا ، واستتاب بها محمد بن شرف الدولة العقيلي .

وراسل ناصر الدولة ابراهيم بن قريش بن بدران - وهو صاحب الموصل حينئذ - يأمره بالخطبة له وان يعطيه طريقا الى بغداد ، فامتنع عليه ، وسار كل واحد منهما الى صاحبه ، فالتقيا بالمضيق من بلد الموصل ، وكان على ميمنة تاج الدولة ، قسيم الدولة اقسنقر ، وعلى ميسرته بوزان ، فحملت العرب على بوزان فانهمز ، وحمل قسيم الدولة على العرب مما يليه فهزمهم ، أسر ابراهيم وجماعة من أمراء العرب ، فقتلهم تاج الدولة صبورا وملك بلادهم جميعها ، الموصل وغيرهما .

وسار في ربيع الآخر من هذه السنة الى ميفارقين فملكها وسائر بلاد بيار بكر .

ثم سار منها الى انريجان فقصده الملك ركن الدين بركياروق - وكان قد ملك كثيرا من البلاد منها : الري وهمذان وما بينهما - فلما تقارب العسكران ، قال قسيم الدولة لبوزان : انما اطعنا هذا الرجل لننظر ما يكون من اولاد صاحبنا ، والان فقد ظهر بركياروق ، والرأي والمروءة تقتضي بأننا نقصده ونكون معه ، ففارقا تاج الدولة وسارا إلى بركياروق وصار معه ، فلما رأى تاج الدولة ذلك ، رجع الى الشام ، وأقام قسيم الدولة عند بركياروق ، فخرج عليه خاله اسماعيل بن ياقوتي ثم اطاعه ، فخلاب به قسيم الدولة وبوزان وبسطوه في الحديث فاعلمهم انه يريد السلطنة وقتل بركياروق ، فوثبا عليه فقتلاه محافظة على صاحبهما ، ثم امرهما ركن الدين بالعود الى الشام ليمنعا تاج الدولة عن البلاد ان قصدها فعادا .

مما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبيح وبني مثلها بسمر قند ايضا .  
ولما مات ضببت زوجته ترکان خاتون العسكر ، وكتمت موته فلم  
يلطم احد وجها ، ولم يشق عليه ثوب ، ولم يسمع بسُلطان مثله توفي  
فلم يصل احد عليه . ولم يجلس اصحابه للعزاء سواء . وارضت  
زوجته العسكر وحلفتهم لولدهما محمود ، وعمره اربع سنين ،  
وسارت الى اصفهان .

وظهر الملك بركياروق بن ملكشاه - وهو الاكبر - فطلب السلطنة  
فأخذها وتوفي محمود . ثم ظهر السلطان محمد بن ملكشاه ، فنازع  
اخاه بركياروق ، وجرت بينهما حروب كثيرة دامت حوالي اثنتي  
عشرة سنة ، الى ان توفي بركياروق واستقرت السلطنة لمحمد .

وفي مدة تلك الحروب ظهر الفرنج الى الساحل ، وملكوا انطاكية  
اولا ثم غيرها من البلاد ، وقد استوفينا ذلك في المستقصى في التاريخ

### ذكر صلح قسيم الدولة اقسنقر

وتاج الدولة تتش بن الب ارسلان وماشده من  
الحروب معه

قد ذكرنا ان السلطان ملكشاه كان قد اقطع اخاه تاج الدولة مدينة  
دمشق واعمالها وماجاورها كطبرية والبيت المقدس وغيرهما ، فلما  
توفي ملكشاه واختلف اولاده وهم صغار ، جمع تاج الدولة العساكر  
وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة اقسنقر ، فعلم قسيم الدولة ان  
اولاد صاحبه صغار ، وان الملك لا يستقيم لهم لصغرهم والخاف  
الواقع بينهم ، ولم يكن له طاقة بتاج الدولة ، فصالحه وخطب له  
بحلب ، وراسل نور الدين بوزان صاحب حران وياغي سيان صاحب  
انطاكية يشير عليهما بطاعة تاج الدولة فملكها ، وخطب لذفسه  
بالسلطنة في محرم سنة ست وثمانين واربعمائة .

## ذكر وفاة امير المؤمنين المقتدى بامر الله وولاية ابنه المستظهر بالله

في المحرم من سنة سبع وثمانين واربعمائة ، توفي الامام المقتدي بامر الله امير المؤمنين رضي الله عنه فجأة . واسمه ابو القاسم عبد الله بن الامير محمد بن القائم بامر الله . وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام .

وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة اشهر .  
وانشأ ببغداد عدة محال ، منها : البصلية ، والبساتين التي كانت بباب الازج ، والحلبة ، والاجمة ، ودرب القيار ، والمقتنية ، وخرابة ابن جردة ، والخاتونية .

وهو استوزر فخر الدولة ابا نصر محمد بن محمد بن جهير ، وهو من الموصل .

وكانت خلافته بعهد من جده القائم بامر الله امير المؤمنين ، وامه تركية .

وكان لين الجانب ، كثير الحلم . وعاش وادعا مرفها .

وتوفي وقد علم على مذكور السلطان بركياروق بالسلطنة . وكتمت القهر مائة شمس النهار موته ، واحضرت الوزير واعيان الدولة وجددت البيعة لولده ابي العباس احمد المستظهر بالله امير المؤمنين ، فلما بايعوا اظهرت وفاة المقتدي .

ولما بويع المستظهر بالله ارسل الى السلطان بركياروق لاختذ البيعة - وكان ببغداد - فانفذ بركياروق وزيره عز الملك بن نظام الملك والامير برسق وكوهرائين شحنة بغداد ، فبايعوا ، ثم بايع هو ، فلما تمت بيعة السلطان احضر الغزالي والشاشي وغيرهما من

- ٦٣٧٢ -

العلماء فبايعوا . ثم ارسلا الى غرنة ، وماوراء النهر ، وكرمان ،  
والشام لآخذ البيعة .  
ولما استخلف اقر عميد الدولة بن جهير على وزارته .

### ذكر نسب المستظهر بالله

هو المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي  
القاسم عبد الله بن الأمير النخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي  
جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن الأمير أبي أحمد  
الموفق بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم أبي  
اسحاق بن محمد الرشيد أبي جعفر هارون بن المهدي أبي عبد الله  
محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله  
ابن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم ، بينه وبين العباس  
عشرة خلفاء ووليا عهد ، وأربعة لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد .

فاما الخلفاء : فالمقتدي ، والقائم ، والقادر ، والمقتدر ،  
والمعتضد ، والمتوكل ، والمعتصم ، والرشيد ، والمهدي ، والمنصور .  
واما وليا العهد : فالنخيرة محمد بن القائم - وهو والد المقتدي  
بأمر الله - والموفق الناصر لدين الله ابو احمد بن المتوكل - وهو  
جد المقتدر بالله .

واما الذين لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد : فاسحاق - والد  
القادر بالله - ، ومحمد - والد المنصور - ، وابوه علي ، وعبد  
الله بن العباس .

وقد ولي الخلافة من بني العباس من غير ابناء المستظهر سبعة  
عشر خليفة ، وهم : ابو العباس عبد الله بن محمد السفاح - اول  
خلفاء بني العباس - ، والهادي موسى بن المهدي ، والامين محمد  
والمأمون عبد الله ابنا الرشيد ، والواثق - وهو أخو المتوكل . ثم

المستعين بالله احمد بن محمد بن المعتصم - وهو ابن اخي المتوكل - ثم المهدي محمد بن الواثق بن المعتصم . وولي المكتفي علي بن المعتضد بالله وأخوه القاهر بالله . ثم ولي الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله ، وأخوه المتقي بالله أبو إسحاق إبراهيم . ثم ولي المكتفي بالله عبد الله بن المكتفي بالله بن المعتضد بالله . ثم ولي المطيع لله أبو القاسم الفضل ، وولده الطائع لله أبو بكر عبد الله .

### ذكر قتل قسيم الدولة أفسنقر رضي الله عنه

في جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، قتل قسيم الدولة أفسنقر وبوزان صاحب حران . وكان سبب قتلها ، ان تاج الدولة تتش لم يزل يجمع العساكر بعد عودته من اذربيجان الى الان ، فكثرت جمعه ، وعظم حشده ، وسار عن دمشق نحو حلب ، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وادهما السلطان ركن الدين بركياروق بالامير كربوقا - وهو الذي صار فيما بعد صاحب الموصل - فلما اجتمعوا وبلغهم مسير تاج الدولة عن دمشق ، تقدموا نحوه والتقوا برويان على نهر سبعين بالقرب من تل السلطان ، بينه وبين حلب نحو ستة فراسخ ، واقتتلوا واشتد القتال ، فحاصر بعض عساكر قسيم الدولة وانهزموا وتبعهم الباقون ، وثبت قسيم الدولة فاخذ أسيرا وأحضر عند تاج الدولة ، فقال له : لو ظفرت بي ماكنت صنعت . قال : كنت اقتلك . قال : فانا احكم عليك بما كنت تحكم علي فقتله صبورا . وسار نحو حلب ، وكان قد دخل اليها الامير كربوقا وبوزان فحفظاها منه ، ولج في قتالها حتى ملكها واخذها اسيرين ، وأرسل الى حران والرها ليملكهما - وكانتا لبوزان - فامتنع من بهما من التسليم لبوزان اليه - فقتل بوزان وأنفذ رأسه وتسلم البلبيين . واما كربوقا فانه أرسله الى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل ابيه تاج الدولة .

وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظا لهم . وكانت بلاده بين عدل عام ، ورخص شامل ، وأمن واسع ، وكان شرط على أهل كل قرية في بلاده ، متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس ، غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده أقوا رحالهم وناموا ، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحدث الركبان بحسن سيرته .

وأما وفائه وحسن عهده فيكفيه فخرا انه قتل في حفظ بني صاحبه وولي نعمته .

ذكر حال ولده عماد الدين زنكي بعد والده رضي الله عنهما

لما قتل قسيم الدولة اقسنقر ، لم يخلف من الاولاد غير ولد واحد ، وهو المولى الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين ، فاجتمع عليه مماليك والده واصحابه ، وفيهم زين الدين علي ، وهو صبي ايضا .

ثم ان الامير كربوقا خلع من السجن بجمص بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وتوجه الى حران - وقد اجتمع معه عسكر صالح - فملكها . ثم صار الى نصيبين فملكها ايضا . ثم الى الموصل فملكها وازال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي ، فانه كان مالكا لها وسار نحو ماربين فملكها ايضا .

وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدين بركياروق فلما ملك البلاد احضر مماليك قسيم الدولة اقسنقر وامرهم باحضار عماد الدين زنكي . وقال : هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضره عنده ، فاقطعهم الاقطاعات السنوية وجمعهم على عماد الدين زنكي ،

واستعان بهم في حروبه وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها ، فلم يزالوا معه .

ثم ان كربوقا توجه إلى آمد وصاحبها من امراء التركمان ، فاستنجد صاحبها بمعين الدولة سقمان بن أرتق - جد صاحب الحصن يومنا هذا - ، فجمع من التركمان خلقا كثيرا وسار نحو آمد وتصاف هو وقوام الدولة كربوقا ، فرأى كثرة التركمان فخافهم ، فاخذ عماد الدين زنكي وألقاه بين مماليك والده ، وقال لهم : قاتلوا عن ابن صاحبكم ، فحينئذ اشتد قتالهم وحمى الوطيس فهزموا سقمان وأسروا ياقوتي ابن أخيه ، فحبسه كربوقا ثم أطلقه . وكان هذا أول مصاف حضره الشهيد عماد الدين زنكي بعد قتل والده . ولم يزل عماد الدين مع كربوقا الى ان توفي سنة اربع وتسعين واربعمائة .

وملك بعده موسى التركماني من اصحابه ، فلم تطل ايامه وقتل .  
وملك الموصل شمس الدولة جكرمش - وهو ايضا من مماليك السلطان ملكشاه واخذ الشهيد عماد الدين وقربه واحبه ، واتخذه ولدا لمعرفته بمكانة والده ، فبقي الى ان قتل سنة خمسماية . ولاجرم ان الشهيد قدس الله روحه ، رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرهما من البلاد ، فانه أخذ ولده ناصر الدين كوري ، فاكرمه وقدمه واقطعه اقطاعا كثيرا ، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صبورا .

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاوا فاتصل به عماد الدين زنكي وقد كبر فظهرت عليه امارات السعادة والشهامة ، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد ، وكان جاولي قد عبر الى الشام ليملكه من الملك رضوان ، فأرسل السلطان الى الموصل الأمير مودود واقطعه اياها سنة ثنتين وخمسماية، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه الشهيد وغيره من الأمراء ، وفيهم الأمير التدونتايش الأبري ، وهذا كان سبب المعرفة بينه وبين الشهيد ، فلما ملك

- ٦٣٧٦ -

أكرمه وأعظمه وأكثر اقطاعه ، فحكى لي والدي قال : كنت أراه الى جانب المولى الشهيد لايتقدم عليه أحد من الأمراء ، وله عقب بالموصل الى الآن في خدمة الدولة القاهرة .

فلما استقر الأمير مودود بالموصل ، واتصل به الشهيد عماد الدين عرف له ذلك ، مضافا الى منزلة أبيه ، ولما رأى منه من العقل والشجاعة ، فزاد في اقطاعه وشهد معه حروبه ، فمما بلغني منها ، ان الأمير مودودا سار الى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعاً من شبختان وكانت للفرنج وقتل من بها منهم ، ثم سار الى الرها فحصرها ولم يقدر على فتحها ، وكانت عقيلة ومكرمة وفضيلة قد ادخرها الله سبحانه وتعالى للمولى الشهيد .

فاستوضحت سبل الآمال حايدة  
عن الملوك الى أعلاهم حسبا

ابهرهم فضلا ، أغمرهم بزلا  
أفخرهم أبدا فعلا ومنتسبا

أشم أشوس مضروبا سرادقه  
على الممالك مرخى دونها الحجبا

ممتنع العز ، معمور الفناء به  
مظفر العزم ؛ والآراء منتخبا

من معشر طالما شبوا بكل وغى  
نارا يظل أعاديهم لها حطبا

ثم ان الأمير مودودا رحل عنها وعبر الفرات الى الشام ، فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوما ولم يبلغ منها غرضاً ، ثم سار عنها الى معرة النعمان فحصرها ، وجاء اليه الأمير طغديكين صاحب

دمشق ، فلما رأى كثرة عسكره خاف ان يأخذ منه دمشق فشرع في صلح الفرنج سرا من مودود فصالحوه ، وكانوا قد ضعفوا عن قتال المسلمين لكثرتهم فان السلطان محمدا ، كان قد أمد الأمير مودودا بعسكر مقدمهم الأمير سـكـمان القطبي صاحب تبـريـز وغيرها ، فمرض سـكـمان واشتد مرضه فعاد ، فأدركه الموت ببالس فأخذ اصحابه تابوته وقصدوا بلاده ، فأعرضهم إيلغازي بن أرتق ليأخذهم ، فصافوه وجعلوا تابوت سـكـمان في القلب كما كان حيا ، وقتلوا فظفروا ، وانهزم ايلغازي وعادوا الى بلادهم .

فلما رأى مودود تفرق العساكر ، ووصلح طغديكين للفرنج ضعفت نفسه وعاد عن الفرنج ، ولم يكن في عسكره من ظهر اسمه غير الشهيد ، وأنن لعسكره في العود والاستراحة ثم الاجتماع لقتال الفرنج فتفرقوا .

وراسل مودود طغديكين وأصلحه وجمع العساكر وعاد الى الشام ، وحضر عنده أتابك طغديكين وساروا جميعا الى طبرية وحضرها وقتلوا قتالا شديدا وظهر من أتابك الشهيد رضي الله عنه شجاعة لم يسمع بمثلها فمنها : أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد ، فحمل عليهم هو ومن معه ، وهو يظن انهم يتبعونه فتخلفوا عنه وتقدم وحده ، وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ، ووصل رمحه الى الباب فأثر فيه وقتلهم عليه ، وهو ينتظر وصول من كان معه ليقاتلوا الفرنج ويتقدم باقي العسكر فيملكون البلد ، فحيث لم ير أحدا حمى نفسه وعاد سالما ، فعجب الناس من اقدامه اولا ومن سلامته أخرا ، وهذه الحادثة مشهورة بالشام لاسيما عند الفرنج .

وجمع الفرنج فرسانهم ورجالتهم وملوكهم وقمامصتهم ، فيهم الملك بردويل صاحب القدس ، وعكا وصور وغيرها ، وجوسلين صاحب تل باشر والرها وغيرها ، فتصافوا ثالث عشر محرم ( سنة ٥٠٧ ) عند بحيرة طبرية ، فظفر المسلمون وانهزم

الفرنج لعنهم الله . ووصلوا الى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به ولم يكن فيه سعة ، فتبعهم المسلمون ، فلما كان من الغد وصل الى الفرنج عسكر قوي من انطاكية وغيرها ، فقويت نفوسهم واحتموا ، وحضرهم المسلمون وهم على رأس جبل والمسلمون في الغور ، وصابروهم ستة وعشرين يوما ، واشتد الحر على المسلمين لمقامهم في الغور ، فرحلوا نحو بيسان ، فنزل اليهم الفرنج وتواقفوا خمسة ايام ، وانقطعت المانة عن المسلمين لبعدهم عن بلادهم ، فعادوا الى مرج الصفر ، وأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع الى بلادهم والاجتماع اليه في الربيع ، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها ، فخرج يوما يصلي الجمعة ، فلما صلاها وخرج الى صحن الجامع ويده بيد طغديكين ، وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات وكان صائما فحمل إلى دار طغديكين وأجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : لالقيت الله الا صائما فإنني ميت لامحالة سواء أفطرت أو صمت ، وتوفي في بقية يومه رحمه الله فقيل ان الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغديكين فوضع عليه من يقتله .

وكان خيرا عادلا حسن السيرة ، فحدثني والذي رحمه الله تعالى قال : كتب ملك الفرنج الى طغديكين يقول له : ان أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها ، لحقيق على الله أن يببدها فلما قتل الأمير مودود ، أقطع السلطان محمد الموصل وغيرها للأمير جيوش بك ، وسير معه ولده الملك مسعودا الى الموصل ، ثم انه جهز آقسنقر البرسقي في العساكر وسيره الى قتال الفرنج ، وكتب الى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالسير معه ، فساروا وفيهم الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي ، وكان قد ظهر عنه من الشجاعة مالا يوصف ، ولا سيما بعد ما فعله بطبرية ، فلما اجتمعت العساكر على البرسقي ، سار الى الرها في خمسة عشر الف فارس ، فحضرها وقاتل من بها من الفرنج والأرمن ، فضاقت الميرة عن العسكر ، فرحل الى سميساط وهي ايضا للفرنج ، فأخرب بلدها وبلد سروج وعاد الى شبختان

فأخرب مافيه للفرنچ ، وأبلى عماد الدين زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا ، وعادت العساكر تتحدث بما فعله عماد الدين وماظهر له من الشجاعة ، وعاد البرسقي الى بغداد ، وأقام عماد الدين بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك الى سنة اربع عشرة وخمسمائة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

وفي سنة احدى عشرة وخمسمائة ( ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله ) ( ١٧ ) .

قال : وفيها غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها خلق كثير ، ومن أعجب مايحكى ان السيل حمل مهذا فيه طفل ، فعلق المهدي في شجرة ونقص الماء ، فسلم ذلك الطفل ، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة .

وفيها ايضا زلزلت اربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة .

## ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وجلوس ولده مغيث الدين محمود في السلطنة

في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة احدى عشرة وخمسمائة ، توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان مرضه في شعبان من هذه السنة ، وكان مرضه اسل ، فلما كان يوم النحر جلس للناس تجلدا ، وكانت الأراجيف قد كثرت وأكل الناس الطعام بحضرته ثم ضعف بعد ذلك ، فلما كان في اليوم الثالث والعشرين من ذي الحجة ايس من نفسه ، فأحضر ولده الملك محمودا - وكان عمره حينئذ اربع عشرة سنة - فلما راه قبله وبكى ، فبكى ولده ، فأمره ان يجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس ، فقال : انه يوم غير مبارك - يعني من طريوق النجوم - فقال : صدقت ، ولكن على ابيك ، وأما عليك فمبارك هو

فأخرب مافيه للفرنج ، وأبلى عماد الدين زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا ، وعادت العساكر تتحدث بما فعله عماد الدين وماظهر له من الشجاعة ، وعاد البرسقي الى بغداد ، وأقام عماد الدين بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك الى سنة اربع عشرة وخمسمائة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

وفي سنة احدى عشرة وخمسمائة ( ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله ) ( ١٧ ) .

قال : وفيها غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها خلق كثير ، ومن أعجب مايحكى ان السيل حمل مهذا فيه طفل ، فعلق المهدي في شجرة ونقص الماء ، فسلم ذلك الطفل ، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة .

وفيها ايضا زلزلت اربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة .

## ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وجلوس ولده مغيث الدين محمود في السلطنة

في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة احدى عشرة وخمسمائة ، توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان مرضه في شعبان من هذه السنة ، وكان مرضه اسل ، فلما كان يوم النحر جلس للناس تجلدا ، وكانت الأراجيف قد كثرت وأكل الناس الطعام بحضرته ثم ضعف بعد ذلك ، فلما كان في اليوم الثالث والعشرين من ذي الحجة ايس من نفسه ، فأحضر ولده الملك محمودا - وكان عمره حينئذ اربع عشرة سنة - فلما راه قبله وبكى ، فبكى ولده ، فأمره ان يجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس ، فقال : انه يوم غير مبارك - يعني من طريق النجوم - فقال : صدقت ، ولكن على ابيك ، وأما عليك فمبارك هو

بالسلطنة ، فخرج وجلس على التخت ، ولبس التاج ، وتوفي السلطان محمد من ليلته ، وأظهرت وفاته من الغد ، وقرئت وصيته على ولده يأمره بالعدل والاحسان ، وكان مولد السلطان محمد ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وكان عمره سبعا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وأول ماخطب له بالسلطنة ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عدة مرار ، ولقى من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد ، الى أن توفي أخوه السلطان ركن الدين بركيارق فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له ، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتمع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة اشهر .

وكان عادلا حسن السيرة ، شجاعا ، واطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد ، ومن عدله انه اشترى عدة ممالك من بعض التجار وأمر أن يوفي الثمن من عامل خوزستان ، فأوصل البعض ومطل بالباقي ، فحضر التاجر مجلس الحكم ، وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث اليه ، فأمر من يستعلم حاله ، فلما سأل عن حاجته ذكرها له ، وأعلمه أنه قد حضر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان ليطالب بماله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله ، فعظم عليه وضاق صدره ، وأمر في الحال ان يحضر عامل خوزستان ، ويلزم بمال التاجر ، وألزمه مصادرة على ذلك لئلا يمطل هو ولاغيره بمال يحال عليهم ، ثم انه ندم على تأخره عن مجلس الحكم وكان يقول كثيرا : لقد ندمت على تركي الحضور بمجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ، ولم يمتنع أحد عن اداء الحق ، وهذه الفضيلة ايضا مما بخرها الله تعالى لهذا البيت الشريف الأتابكي ، فان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، فعل ما ندم السلطان محمد على تركه ، ولما علم الأمراء وغيرهم ( أن ) من خلق السلطان محبة العدل واداء الحق وكراهة الظلم ومعاقبة من يفعله ، اقتدوا ( به ) وأمن الناس ، وظهر العدل .

ثم ان السلطان محمودا أقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه السلطان سنجر حرب ، انهزم فيها محمودا وعاد الى عمه بغير عهد ، فأكرمه وأقطعه من البلاد من حد خراسان الى الداروم بأقصى الشام ، وهي من الممالك : همذان ، واصفهان وبلد الجبال جميعه ، وبلاد كرمان ، وفارسن وخوزستان والعراق وأذربيجان وأرمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مصر وديار ربيعة والشام وبلد الروم الذي بيد أولاد قلج ارسلان ومايين هذه الممالك من البلاد. ورأيت منشورة بذلك .

ولم يكن لعماد الدين في هذه الحرب أثر ، ولا شهدا ليستقصى ذكرها فلهذا أعرضنا عن شرحها وأشرنا اليها لتعرف .

## ذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله

### وخلافة المسترشد بالله

قال ، وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله من تراقى ظهرت به ( ١٨ )

وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام .  
وخلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً .  
ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغداد ، وهم : تاج الدولة تتش ( ١٩ ) ، وركن الدين بركيارق بن ملكشاه ، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه .

وكان رضي الله عنه كريم الأخلاق ، لين الجانب، مشكور المساعي ، يحب العلم والعلماء ، وصنفت له التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرها .

وكان يسارع الى أعمال البر والمثوبات ، ولايرد مكرومة تطلب منه ، كثير الودوق الى من يوليه الأعمال ، لايصغي الى سعاية ساع .

وكانت أيامه أيام سرور وأمن للرعية ، وكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره ، واذا تعرض سلطان أو غيره الى أذى أحدهم بسالغ في انكار ذلك والزجر عنه .

وكان حسن الخط ، جيد التوقيعات لايقاربه فيها أحد ، تدل على فضل غزير وعلم واسع ، ولما توفي صلى عليه ابنه المسترشد بالله ، ودفن في حجرة كانت له يالفها ، ولما فرغ من الصلاة عليه ودفنه جلس للبيعة ، فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء والفقهاء والقضاة ومشايخ الصوفية ، وكان المتولي لأخذ البيعة قاضي القضاة علي بن محمد الدامقاني ، وممن بايعه الشيخ أبو النجيب السهروردي ، ووعظه موعظة بليغة تتضمن العدل والاحسان .

ذكر الحرب بين السلطان محمود واخيه الملك مسعود

وما أثر عن عماد الدين فيها

قال: لما ولي السلطان محمود السلطنة ، اقر أخاه الملك مسعود على الموصل مع اتابكه جيوش بك ، فبقي مطيعا لأخيه الى سنة اربع عشرة وخمسائة ، فحينئذ خرج عن طاعته ، وكان سبب ذلك ان دبيس بن صدقة الاسدي ، كان في عسكر السلطان محمد ، وقد اخذ بلد الحلة منه ، فلما ملك السلطان محمود اقطعه الحلة واعانه اليها ، فلما وصل الى الحلة كاتب الأمير جيوش بك

وحسن له العصيان على السلطان محمود ، ووعده المساعدة على طلب السلطنة للملك مسعود ، وكان غرضه أن يختلفوا ، فينال من التمكن والجاه ، ما ناله أبوه سيف الدولة صدقة فاختلاف السلطانيين بركيارق ومحمد ، وقد ذكرناه في المستقصى - وكان الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي الأصفهاني قد اتصل بالملك مسعود فاستوزره وأشار بذلك أيضا ، وكان لجيوش بك مع الموصل ، ولاية انريجان ، فلما شرع في جمع الجيوش بلغ ذلك الى السلطان محمود ، فأرسل اليه والى اخيه مسعود يرغبهما ويعدهما الاحسان أن عاودا الطاعة ، ويتهددهما أن أصرا على المعصية ، فلم يرجعا ، وقوي طمعهما لما بلغهما تفرق العساكر عن السلطان محمود ، وأظهرا العصيان ، وخطب للملك مسعود بالسلطنة ، وكان عماد الدين زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ، ويحذرهم عاقبة العصيان ، فلم يرجعا الى قوله ، وبلغ قوله الى السلطان فعرفه له .

ثم إن الملك مسعودا وجيوش بك سارا في العساكر نحو السلطان ، ينتهزان الفرصة بقلّة عسكره وتفرقهم ، فجمع من قرب اليه من عساكره فبلغت عدتهم نحو وخمسة عشر الف فارس ، والتقوا عند عقبة اسد آباد في ربيع الأول ، فدام القتال بينهم الى الليل ، ثم انهزم الملك مسعود وجيوش بك ومن معهما ، واسر جماعة من امراء عسكرهما والاعيان ، منهم الأستاذ ابو اسماعيل الطغرائي وزير مسعود ، فقتله السلطان وقال: قد صح عندي فساد اعتقاده وبينه ، وكان قد جاوز ستين سنة . وكان حسن الكتابة جيد الشعر ، فمن شعره :

تمنيت ان القاك في الدهر مرة

فلم أك في هذا التمني بمرزوق

سوى ساعة التوبيخ دامت فكّم مني

أنالت وما قامت بها أملا سوقى

فباليات ان الدهر كل زمانه  
وداع ولكن لا يكون بتفريق

فأما الملك مسعود ، فإنه سار منهزما إلى مكان بينه وبين الواقعة  
اثني عشر فرسخا فاخترى فيه ، وارسل ركابيا كان معه إلى أخيه  
يطلب الأمان ، فأرسل إليه البرسقي بأمانة وتطبيب قلبه ، فأحضره  
معه عند السلطان ، فأمر الناس كلهم بلقائه وأكرمه واحسن  
اليه ، ولما لقيه بكى كل واحد منهما الى صاحبه ، واعتذر مسعود  
فقبل عذره وخلطه بنفسه في كل اموره .

وأما جيوش بك فانه سار وانتظر الملك مسعودا فلم يره ، فسار  
إلى الموصل وجمع الغلات والعساكر ليمنع بها فلما بلغه خبر  
اتصال مسعود بأخيه السلطان محمود علم انه لا مقام له ، فسار  
جريدة الى السلطان فأمنه وأكرمه ، وأخذ الموصل منه واقره على  
اذربيجان .

### ذكر ولاية البرسقي الموصل

ثم ان السلطان اقطع أقسـنـقـر البـرسـقـي بـلد المـوصـل  
واعمالها، كالجزيرة ، وسنجان ، ونصيبين وغيرها في صفر سنة  
خمس عشرة وخمسائة وسيره إليها ، وأمره بحفظ عماد الدين  
زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته ، فسار الى الموصل ، وفعل مع  
عماد الدين ما أمره به السلطان ، وزاد على ذلك لما كان من العقل  
والشجاعة ، وتقدم والده في الأيام الركنية وكانت سيرة ملكشاه  
عندهم كالشريعة المتبعة ، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا  
لسيرته .

## ذكر اقطاع عماد الدين زنكي مدينة واسط

في سنة ست عشرة وخمسمائة ، اقطع اتابك عماد الدين مدينة واسط وولي شحنكية البصرة ، وكان سبب ذلك ان الامير ديبس بن صدقة الاسدي صاحب الحلة ، كان قد تقدم منه مع الملك مسعود والامير جيوش بك ما ذكرناه ، فبلغ ذلك السلطان (محمود) وانضاف إلى ذلك شكوى أمير المؤمنين المسترشد بالله منه الى السلطان ، فأرسل إلى البرسقي يأمره بالانحدار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة ديبس ، فانحدر إليها في عساكره ومعها عماد الدين زنكي ، وسار عن بغداد نحو الحلة فلقه ديبس عند نهر بشير ، فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال ، وسبب ذلك انه رأى خلا في مسيرته وبها الأمراء البكجية ، فأمر أن تلقى خيمته وتنصب عند الميسرة لتقوى قلوبهم ، فحين اقيت الخيمة رأت الميسرة ذلك فظنت الهزيمة فانهزموا وتبعهم الناس والبرسقي ، وقيل بل اعطي رقعة فيها أن جماعة من العسكر يريدون الفتك به ، فخاف على نفسه وساء ظنه ، وانصرف من مكانه وانهزم الناس ، وعاد الى بغداد ثاني ربيع الآخر ، فلما انهزم البرسقي لم يعرض ديبس لنهر ملك ولا غيره ، وأرسل الى الخليفة انه على الطاعة ، ويطلب أن يخرج الذواب الى الأعمال .

ثم أن السلطان ولى البرسقي شحنكية العراق جميعه ، وزوجه خاتون بهشت جهان والدة اخيه الملك مسعود ، واقام البرسقي ببغداد الى شعبان من هذه السنة ، وترددت الرسل بينه وبين ديبس في الصلح فلم يتم ذلك ، فأرسل ديبس عسكرا الى واسط - وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فصاروا معه - فلما سمع من بها بمسير عسكر ديبس اليهم ، أرسلوا يطلبون المدد من البرسقي ، فأمدهم بالامير التونتاش الأبري وبعمداد الدين زنكي واقطعه البلد ، وامرهم بطاعته ، فصافوا عسكر ديبس فهزموهم واسروا أكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين إلى ديبس .

وأقام عماد الدين زنكي بواسط ، وارسل البرسقي إليه أيضا فوله شحذكية البصرة وأمره بحمايتها ، فوليها وحماها ، وانتقل إليها وأقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب إليها والاغارة عليها مرة بعد أخرى ، فلما سكنها لم يتعرض إليها أحد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه احد ، فازداد شأنه عظما .

وتجنب ديبس قصد ولايته لعلمه أنه لا ينال منها غرضا ، وأندفد عسكريا نحو المدائن ، فخاف اهل بغداد ، وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي عازما على قصد ديبس ، وناهيك هذا شرفا لعماد الدين ، حيث يترك ديبس ولايته مع بعدها عن بغداد ويقصد المدائن وهي إلى جانب بغداد والبرسقي في العساكر قريب منها .

وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب .

### ذكر هزيمة ديبس وعسكر بغداد

### وما ظهر لعماد الدين زنكي من الشجاعة

لما ورد ديبس وعساكره الى المدائن وعبر البرسقي الى الجانب الغربي ليسير اليه ، أرسل الخليفة المسترشد بالله الى ديبس ينهاه عن العصيان ، ويتهدده ان اصر على المخالفة بقصد بلده ، فغضب ديبس وحلف ليقصد بغداد وليخربنها ويقتل اهلها ، وجمع العرب واطمعمهم في نهب بغداد فكثرت جمعه . فلما علم الخليفة بما كان منه ، سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قباء اسود وعمامة سوداء وطرحة ، وعلى كتفه برة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويده القضيب ، وعبر في الزبذب ومعه وزيره نظام الملك احمد بن نظام الملك ، وذقيب الذقباة وشيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل ، وقاضي القضاة الزينبي وغيرهم ، فلما سمع البرسقي



ووقع نساء دببس وسراريه في الأسر ، غير زوجته ابنة ايلغازى  
ابن ارتق وابنة عميد الدولة ابن جببر ، فإنهما كانتا بمشهد الحسين  
عليه السلام .

وكانت الواقعة في اول المحرم سنة عشرة وخمس مائة وعاد  
المسترشد الى بغداد فدخلها يوم عاشوراء •

وثار العامة ببغداد ، فذهبوا لمشهد باب التين وماعند  
الضريحين ، وقلعوا أبواب المشهد ، فشكا العلويون ذلك إلى الخليفة  
فأنكره ، وسير نظر الخادم أمير الحاج إلى المشهد لتأديب من فعل  
ذلك والتذكيل به ، ففعل بهم ما أمر ، واسترد من النهيب ما أمكنه  
ورده على أصحابه .

وأما دببس فإنه لما انهزم ، التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد  
وصار معه من خواص أصحابه ، وكان عاصيا على أخيه السلطان  
محمود .

## ذكر مفارقة الشهيد عماد الدين البرسقي

### واتصاله بالسلطان محمود

قال : ولما فارق دببس العراق ولحق بطغرل ، أمنت البلاد ، فأرسل  
السلطان محمود إلى البرسقي يأمره بالعود إلى الموصل والاشتغال  
بجهاد الأفرنج ، وولى شحذكية بغداد يرندقش الزكوي ، فعاد  
البرسقي في ستة سبع عشرة وخمس مائة •

وكان أتابك عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة ، فأرسل البرسقي  
إليه يعلمه الحال ، ويستدعيه ليسير معه إلى الموصل . فحدثني  
والدي قال : حدثني جماعة ممن كان مع الشهيد ، قالوا : جمع



## ذكر إقطاعه البصرة من السلطان

ثم إن السلطان أتاه في ذلك الوقت الخبر بأن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فأمر أتابك عماد الدين بالمسير إليها ، وأقطعه إياها لما كان بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي - وقت اختلاف العساكر والحروب - وأمره بالحفظ والاحتياط .  
وكان قد قيل للسلطان إن الخليفة قد باشر الحرب وأحب جمع العساكر ، وخوف ناحيته ، فتقدم إلى عماد الدين بمراعاة أحوال واسط والتطلع إلى معرفة حالها ، فإن قصدتها عسكر من الخليفة يسير إليها ويحفظها ، فسار إلى العراق وأقام بالبصرة ، وأحسن السياسة لأهلها والحماية لهم من العرب وغيرهم ، فصار يرسل طوائف من عسكره فيوقعون بالأعراب ، فأمنت البلاد والطرق ، وواصل السلطان بأخبار العراق حتى لم يخف عليه منها شيء ، فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عنده .

## ذكر ولايته شحذكية بغداد

كان قد جرى بين يرذفش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفره ، فتهدده المسترشد ، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة وخمسائة ، شاكيا من المسترشد بالله ، وحذر السلطان جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه عن العراق ،

وقال له : إن تاخرت عن العراق إزداد قوة ومنعك عن البلاد . فتجهز السلطان الى العراق ، فأرسل إليه الخليفة يطلب منه أن لا يأتي بغداد هذه الدفعة لخراب البلاد والغلاء الذي بها ، وبذل له على تأخره مالا كثيرا ، فلما سمع السلطان الرسالة لم يجب إلى التأخر عن العراق وصمم العزم على الحركة .

فلما بلغ الخبر الى الخليفة عبر هو واهله وحرمه وأرباب المناصب الى الجانب الغربي في ذي القعدة . مظهرا للغضب والانتزاع عن بغداد إن قصدها السلطان . فلما خرج من داره بكى الناس بكاء عظيما ، واتصل الخبر بالسلطان فعظم عليه ، وأرسل إليه يستعطفه ويسأله العود إلى داره ، فاعاد الجواب : إنني أمرتك بالتأخر لخراب البلاد وهلاك الناس وعدم الاقوات ، ويقول له : إن قصدت العراق فنحن راحلون عنه بالاهل والمال . فاغتاظ السلطان من ذلك ورحل الى بغداد ، فلما كان عيد النحر ، أمر المسترشد بالله بأن تنصب السراذقات والمنبر ، واحضر خواصه وأرباب المناصب وأعيان الدولة ، وصلى هو بالناس يوم العيد وخطبهم ، فبكى الناس لخطبته بكاء عظيما .

ثم إنه أرسل عفيفا الخادم في عسكر الى واسط ، وبها عماد الدين زنكي ، وكان قد سار من البصرة لحفظها والذب عنها ، فلما وصل عفيف ، أرسل إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالعود ، فلم يلتفت إليه ، وجاء حتى نزل بالجانب الغربي من واسط ، فعبّر إليه الشهيد وقاتله قتالا شديدا ، فانهزم عسكر عفيف ، وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر مثلهم ، وتجاوز عن عفيف حتى نجا ، ولو شاء لأخذه .

ثم إن الخليفة جمع السفن جميعا إليه ، وسد أبواب الخلافة سوى باب الذوبي ، وأمر حاجب الباب ، ابن الصاحب ، بالمقام فيه يحفظ الدار ، ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواه . ووصل السلطان الى بغداد في عشرين من ذي الحجة ، ونزل بالشماسية ، وبخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس ، ولم يزل السلطان يرسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح وهو يمتنع ، وكان يجري بين العسكرين مناوشة ، والعامّة من الجانب الغربي يسبون السلطان أفدح سب .

ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة في المحرم

سنة عشرين وخمسمائة ، ونهبوا التاج وحجر الخليفة ، وضج اهل بغداد . فلما راهم الخليفة ينهبون داره ، خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه ، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ، ونادى بأعلى صوته : يأل هاشم ، وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر العسكر دفعة واحدة . وكان في الدار الف رجل مختفين في السرايب فظهروا - وعسكر السلطان قد اشتغلوا بالنهب - فأسروا جماعة من الامراء . ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الامراء ، ودار عزيز الدين المستوفي ، ودار حكيم اوحد الزمان الطبيب ، وقتل منهم خلق كثير في الدروب . ثم عبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون الف مقاتل من اهل بغداد والسواد ، وحفروا الخنادق في الليل ، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ، واشتد الغلاء عند العسكر ، وعظم القتال كل يوم على ابواب البلد وعلى شاطئ دجلة .

وعزم عسكر الخليفة على تبييت عسكر السلطان ، فغدر بهم الامير أبو الهيجاء الكردي الهذباني صاحب إربل ، وخرج كأنه يريد القتال والتحق هو وعسكره بالسلطان .

وكان السلطان قد ارسل الى عماد الدين زنكي يامره ان يحضر بنفسه ، ومعه المقاتلة في البر والماء ، وان يكثر من السفن مهما أمكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة الا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، وأصعد في البر والسفن سائرة في الماء ، فلما قارب بغداد نشر الاعلام ، واظهر السلاح ، وأخرج بعض من في السفن الى البر فامتلات الارض والماء رجالا وسلاحا ، فرأى لناس منظرا عجيبا وعظم ذلك في أعينهم ، وركب السلطان والعساكر فرأوا ماملا قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين عند السلطان منزلة ، واستدل على كفايته ونهضته وحسن سياسته ، لان البلاد التي كانت بيده لم يكن عسكرها يقدر يفارقها ليحفظوها ، فاخرج منها هذا الخلق الكثير ، ولم يتعرض اليها أحد بانى .

وكان الخليفة - لما هرب الامير ابو الهيجاء وبلغه مجيء عماد الدين - قد ضعفت نفسه ، وعلم أن عماد الدين يجيء ويقاثلهم في الماء ويمنع الميرة عنهم ، ويقاثلهم السلطان في البر فيعظم عليه الخطب ، فحينئذ راسل السلطان طلبا في الصلح ، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا وعادا الى ما كانا عليه ، واعتذر السلطان مما جرى . وكان حليما يسمع سبه بانثه ولا يعاقب عليه . وعفا عن أهل بغداد جميعهم . وكان بعض أصحابه يشيرون عليه أيام الحصار باحراق بغداد فلم يفعل ، وقال : لاتساوي العراق بعض هذا . ولما تم الصلح ، أقام السلطان ببغداد الى عاشر ربيع الآخر ، وحمل الخليفة اليه كل ما استقرت القاعدة عليه من المال ، والسلاح ، والخيل وغير ذلك .

فلما اراد السلطان الرحيل ، نظر في من يصلح أن يلي شحنة بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ويضبط الامور ، فلم ير في امرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه من الاتساع ، وتقوى نفسه على ركوب هذا الخطر ، غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنة العراق مضافا الى ما بيده من الاقطاع ، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق ، حيث اسنده إلى الكافي القيم بأمره .

### ذكر قتل البرسقي وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

في سنة عشرين وخمسمائة ، قتل أقسنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية . وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ، ونال منه الباؤون أنى شديدا ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة ايام ، فقال : لاتترك الجمعة لشيء أبدا ، وكان يشهدا في الجامع مع العامة ، فحضر الجامع على عادته ،

فثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة ، وقتل رحمه الله .

وكان خيرا عادلا ، لين الاخلاق ، حسن العشرة مع اصحابه . حكى لي والدي رحمه الله تعالى ، قال : حكى بعض الغلمان الذين يخدمون البرسقي ، قال : كان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة ، وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد ، قال : فرأيته بعض ليالي الشتاء بالموصل ، وقد قام من فراشه ، وعليه فرجية وبر صغيرة وبيده ابريق نحاس وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به ، فلما رأته قمت إليه لأخذ الابريق من يده ، فمنعني وقال : يا مسكين إرجع الى مكانك فإنه برد ، فاجتهدت به لأخذ الابريق من يده فلم يفعل ، ولم يزل حتى رنني الى مكاني . ثم توضأ ووقف يصلي . وذكر لي من احواله الحسنه أشياء لم أطول بذكرها .

### ذكر ولاية ابنه عز الدين مسعود ووفاته

لما قتل البرسقي ، قام بالموصل بعده ابنه عز الدين مسعود ، وارسل الى السلطان يطلب ان يقرر البلاد عليه ، فاجابه الى ذلك واقره على ما كان لابييه من الاعمال ، فضبط البلاد وقام فيها المقام المرضي ، وكان شابا عاقلا ، فجمع عساكر ابيه وأحسن إليهم ، وكان يدبر الامر بين يديه الامير جاولي - وهو مملوك تركي من مماليك ابيه - وكان أيضا عاقلا حسن السيرة ، فجرت الامور على أحسن نظام ، فلم تطل أيامه ، وأدركه في عذفوان شبابه حمامه وتوفي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، فولى بعده أخوه الاصغر ، وقام بتدبير دولته جاولي أيضا ، وارسل إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليهم ، وبذل أموالا كثيرة .

## ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكي الموصل وسائر بلاد الجزيرة

نبتدى قبل ذكر ملكه للبلاد ، بذكر الحال التي كان عليها المسلمون من الوهن والضعف ، والمشركون من القوة ، فذقول : لما ملك المولى الشهيد البلاد ، كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شهرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت إلى بلاد الاسلام أيديهم ، وضعف اهلها من كف عانيتهم ، وتتابع غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب ، وركبوهم بالتبار والتباب ، واستطار في البلاد شرر شهرم ، وعم اهلها شديد حيفهم وعظيم قهرهم ، فنجوم سعد المسلمين منكورة ، وسما عزهم مذفطرة ، وشمس إقبالهم منكورة ، ورايات المشركين خلال نيار الاسلام مذشورة ، وأنصارهم على أهل الايمان منصوره .

وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين ، وشبختان الى عريش مصر ، لم يتخاله من ولاية المسلمين غير حلب ، وحمص ، وحماه ، ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ من نيار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد . ومن نيار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، فاستاصلوا ما لاهلها من أثاث وعين .

وأما الرقة وحران ، فقد كان اهلها معهم في نل و صغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ، ومنعوهم القرار ، وألصقوا بهم الصغار ، فهم ينادون بالويل والثبور ، ويودون لو أنهم من ساكني القبور .

وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف ، وركوب المفازة تعباً ومشقة ونصبا ، ويخاطرون بالقرب من العرب بأموالهم وأنفسهم .

ثم زاد الأمر ، وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا وأتاوة ، يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم ، ثم لم يقنعوا بذلك ، حتى أرسلوا الى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والارمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم أو العود الى أوطانهم ، والرجوع إلى أهليهم وأخوانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن أثار العود إلى أهله أخذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا ، وللكافرين قدرة واقتسارا .

واما حلب فانهم أخذوا مناصفة اعمالها حتى في الرحا التي على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة نحو عشرين خطوة .

واما باقي بلاد الشام ، فكان حالها أشد من هذين البليين . فلما نظر الله تعالى الى ملوك البلاد الاسلامية وأمراء الملة الحنيفية ، وما هم فيه من العجز عن نصره اللين ، والوهن في حماية الموحدين ، ورأى قهر عدوهم لهم وشدة صوله ، وما نصب عليهم من ظل نكاله وويله ، إرتاع للإسلام وأهله ، وانف لهم من ذلال عدوهم لهم واسره وقتله ، فحينئذ اراد ان يسלט على الفرنج من بسوء افعالها يجازيها ، ويرسل على شياطين الصلابان رجوما منه تهلكها وتفنيها ، فنظر في جريدة شجعان أوليائه ، وذوي الراي والنجدة والشهامة من اصفياه ، فلم ير فيها أقوى على هذا الامر من المولى الشهيد عماد الدين زنكي ولا أثبت جنانا ، ولا امضى عزما ، ولا أنفذ سنانا ، فولاه الثغور ، ورعاية الجمهور ، كما يقول القائل :

رماها بحرب منه حتى كانما  
بدعوة نوح في العصاة رماها  
أخي الحرب يصلحها بنفس كانما  
تزاحم في ضنك الوغى بسواها  
كتائب تزهي بالفتوح كانما  
تباري النجوم الطالعات قناها

فغزا الفرنج في عقر بيارهم ، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم فأصبحت أهله الاسلام مبدرة بعد سرارها ، وشموس الايمان منيرة بعد طموس أنوارها ، وماس المسلمون في حلال من النصر فضفاضة ، ووردوا مناهل من الظفر فياضة ، واستنقذوا من أهل التثليث حصونا ومعقل ، وجازوهم بما اسلفوا من الدخول والطوايل ، وألقى التوحيد بالنيار الجزرية والشامية جرانه ، وبث فيها أنصاره واعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر ، وقال ، يا أهل الشرك لا عاصم اليوم من أنصاري ولا وزر . فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعا ولم يستكبر ، فيالها نعمة عمت التوحيد وأهله ، ونقمة مزقت من الشرك شمله ، وسترى ما أجملناه مفصلا ، وما اختصرناه مطولا ، هذا سوى مكارم أخلاق أدرع جلابها ، وحسن سياسة إعتاق بمحكم أسبابها ، يرد ذكرها عند قتله قدس الله روحه ونور ضريحه .

وأما ملكه البلاد ، ففي شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وخمسمائة . قال : تولى عماد الدين زنكي بن أقسنقر الموصل ، وديار الجزيرة ، ونصيبين وما كان بيد البرسقي . وكان سبب ذلك أن عز الدين مسعود بن البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه ، وتولى أمره جاولي ، أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرر البلاد عليه ، كما ذكرنا . وكان واسطة ذلك القاضي بهاء الدين أبا الحسن علي بن الشهر زوري وصلاح الدين محمد الياغيساني ، فحضر بغداد ليخاطبوا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولايرضيان بطاعته والتصرف بحكمه ، فاجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر - الذي كان أعظم اصحاب أتاك زنكي منزلة - وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مصاهرة ، فذكر له صلاح الدين ما قدم له ، فخوفه نصير الدين ، من جاولي وتحكمه على صاحبه ، وقال له : إن رأيت أن تطلب البلاد لعماد الدين فهو الراي ، لان السلطان صورة وأنا وأنت معنى ، فأجابه إلى ذلك وأخذه إلى القاضي بهاء الدين ابن الشهر زوري وتحدثا معه ووعد نصير الدين ومناه ، وض

له عن عماد الدين من الاملاك والاقطاع والوقوف على اختياره  
ماجاوز أمله ، فأجاب بهاء الدين أيضا ، وركب هو وصلاح الدين  
الى دار الوزير - وهو حينئذ أنو شروان بن خالد - فقال له : قد  
علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى  
الفرنج ( عليها ) وتمكذوا منها وقويت شوكتهم ، وقد كان  
البرسقي يكف بعض عاديتهم فمذ قتل ازداد طمعهم ، وهذا ولده  
طفل ، ولا بد للبلاد من شهيم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها ، وقد  
أنهينا الحال إليك ، لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام  
والمسلمين ، فنحصل نحن باللائم من الله ، واللوم من  
السلطان ، فأنهى الوزير ذلك الى السلطان، فقال : من تريان  
يصلح لهذه البلاد ، فقد نصحتما لله تعالى وللمسلمين ، فذكروا  
جماعة فيهم عماد الدين زنكي ، وعظما محله أكثر من غيره فمال  
السلطان الى توليته ، لما علم من شهامته وكفايته وعقله ولما تولاه ،  
وأمرهما بالحضور عنده ، وفصل الحال في خدمة يحملها ، واستقر  
الحال وولاه البلاد جميعها ، وكتب منشوره الى بغداد .

وسار زنكي الى البوازيح ليملكها ويتقوى بها ، ويجعلها ظهره  
إن صده جوالي عن البلاد ، فلما استولى عليها سار عنها الى  
الموصل ، فحين أن اتصل خبر وصوله بجاولي ، خرج إلى لقائه  
ومعه العسكر جميعه ، فلما رأى الشهيد ، نزل عن فرسه وقبل  
الارض ، ثم قبل يده وعاد في خدمته ، فأقطعه الشهيد الرحبة  
وأعمالها وسيره إليها ، وأقام هو بالموصل إلى أن يصلح أمورها  
ويقرر قواعدها ، فولى نصير الدين دزدارية الموصل وفوض إليه أمر  
الولاية جميعها ، وجعل الدزدارية في البلاد لنصير الدين أيضا وجعل  
صلاح الدين الياغيساني أمير حاجب ، وجعل بهاء الدين قاضي  
قضاة بلاده جميعها ومايفتحه من البلاد ، ووفى لهم بما  
وعدهم ، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكثرهم  
انبساطا معه وقربا منه ، ورتب الامور على أحسن حال وأحكم  
قاعة .

## ذكر ملكه جزيرة ابن عمر

لما فرغ الشهيد رضي الله عنه من أمر الموصل ، وتقـرير قواعدها (حشد)الجنود وأقطع العساكر(ثم) سار نحو جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها بعض ممالك البرسقي ، فامتنع بها ثقة بحصانتها وظنا منه أنها تدميه ، فراسله عماد الدين وبذل له ورغبة فلم يصغ الى ذلك ، فحينئذ جد الشهيد في قتالها ، وبينه وبين البلد الدجلة فأمر الناس فألقوا أنفسهم في دجلة ، بعضهم سباحة ، وبعضهم في السفن ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خـرجوا عن البلد إلى أرض بين البلد وبين دجلة تعرف بالزلاقة ، ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فاقتتلوا هم والعساكر قد عبروا الماء ، فانهزم عسكر الجزيرة ، وملك عسكر عماد الدين ، فلما رأى من بالبلد ذلك ، ايقنوا أن البلد يؤخذ عنوة إن لم يأمنوهم ، فأرسلوا الى عماد الدين - وكان قد عبر دجلة أيضا مع عسكر - وطلبوا منه الأمان وقاعدة تقرر بينهم ، فأجابهم الى ذلك ، وتسلم البلد ودخله هو وعسكره ، فاتفق أن دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة ، حتى التصق الماء بسور البلد وصعد فيه أكثر من قامه ، واستترت الزلاقة بالماء ، فلو تأخر دخول الشهيد الى البلد يومهم ذلك ، لغرقهم الماء عن آخرهم ولم ينج منهم أحد ، فلما رأى ذلك الناس ، ايقنوا بسعادته وعلموا أن أمورا - هذه بدايتها - لعظيمة .

## ذكر ملكه البلاد الجزرية بقوة واقتدار

قال : فلما فرغ من أمر جزيرة ابن عمر ، سار عنها الى نصيبين - وكانت لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماربين وغيرها - فلما نازلها الشهيد ، سار حسام الدين الى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستتجده على

دفع أتابك عن نصيبين ، فوعده النجدة وجمع عساكره ، وعاد حسام الدين الى ماربين ، وسير رقاعا على أجنحة الطيور الى نصيبين ، يعلم من بها من الأجناد أنه وابن عمه ركن الدولة سائران في العساكر الكثيرة ، ويأمرهم بحفظ البلد ثلاثة أيام ، فبينما أتابك الشهيد في خيمته إذ رأى طائرا قد سقط على خيمة تجاورها ، فأمر بصيده فاصطيد ، فرأى فيه رقعة ففتحها ، وإذا هي الرقعة المذكورة ، فأمر فكتب غيرها ، يقول فيها : من حسام الدين ، إنني قد قصدت ابن عمي ، وقد وعدني بالنصرة والمسير في العساكر ، وما يأتخر وصوله إلينا أكثر من عشرين يوما ، ويأمرهم بحفظ البلد في هذه المدة ، وشدها على جناح الطائر وأرسله ، فلما رأى من فيه الرقعة ، خافوا على نفوسهم ، وعلموا أنهم يعجزون عن حفظ البلد هذه المدة ، فأرسلوا إلى الشهيد وصانعوه وسلموا إليه القلعة ، فبطل على داود وتمرتاش ماكانا عزمنا عليه ، وقد جرى مثلها للمولى السعيد نور الدين أرسلان شاه على نصيبين أيضا سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، ونحن نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها .

قال : فلما تسلم الشهيد نصيبين ، سار عنها إلى سنجار فامتنعت عليه وقاتله من بها ، ثم إنهم سلموها إليه واتصلوا بخدمته ، وسير منها الشحن الى الخابور فملكه جميعه ، ثم سار إلى حران - وكانت الرها وسروج وغيرهما من بيار الجزيرة للفرنج لعنهم الله - وأهل حران معهم في ضيق عظيم ، لخلو البلاد من حام يذب عنها أو سلطان يمنعها فلما سمعوا بملك الشهيد البلاد واستيلائه عليها ، واذعان من بها إليه ، قويت نفوسهم ، وعلموا أنهم قد أتاهم نصر من الله وفتح قريب ، فساروا سلوه بالطاعة ، واستحثوه على الوصول إليهم ، فسار نحوهم مجدا حتى نزل بساحتهم ، فاستبشروا بقدومه وخرجوا إلى لقائه ، فوعدهم ومناهم .

وأرسل الى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التي بيد

الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسيرة ، يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء ، على ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية ، واصلاح شأنها ، والفرغ من اقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم .

وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية ، فاستقرت قاعدة الصلح بينه وبين جوسلين على ما اختاره .

### ذكر ملكه مدينة حلب وحماة

كان الفرنج خذلهم الله تعالى قد استضعفوا بلاد الشام الاسلامية ، فتابعوا الغارات على أهلها وقصدوا محاصرين لها لخالوها من حام ومانع ، وقد قوي طمعهم في ملك ما بقي في يد المسلمين من البلاد ، لا يعلمون مساعده الله سبحانه في سر الغيب ، وما قدره من الانتقام منهم وادالة المسلمين عليهم ، ليذهب (غيط قلوبهم) (ويشف صدور قوم مؤمنين) (التوبة ١٤ - ١٥)

وكان الفرنج يقاسمون أهل حلب على رحا بباب الجنان ، بينها وبين المدينة أذرع يسيرة ، فلما سمع من بها بعماد الدين وقربه منهم ، راسلوه يستغيثون به ويستنصرونه ، وأذعنوا له بالطاعة ، فسار إليهم فلما عبر الفرات ، ملك مدينة منبج ، وحصن بزاعة وسار الى حلب ، فالتقاه أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به ما لا يعلمه إلا الله سبحانه تعالى ، وكان ملكه لها سنة اثنين وعشرين وخمسمائة ،

ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد ، لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه ، فإنهم كانوا لهم من أتاك طغديكين شاغل ومانع عن بعض أغراضهم ، وكانوا متى حصروا

- ٦٤١١ -

حلب وغيرها جمع طغديكين عسكره وسار نحوهم فيرحلون ، فقدر الله تعالى أنه توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فخلت البلاد بالمرّة ، وصح قول النبي صلى الله عليه وسلم : لم تخل البلاد من قائم لله بنصر بينه ، ولطف الله بالمسلمين بعده ، وولى الشهيد قدس الله روحه ، ولما ملكها أقام بها ليقدر قوا عداها ، ويصلح أمورها ، ويعمر ما خرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليها ، ففرغ من جميع ما أراد .

وفي سنة ثلاث وعشرين ( وخمسمائة ) سار إلى حماة فملكها .

ذكر الحرب بين الشهيد أتابك وبين الملوك الأرتقية وملك مدينة سرجة ودارا وما إليهما .

وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، اجتمع ركن الدولة داود بن سقمان صاحب الحصن وغيره ، وحسام الدين تمر تاش بن ايلغازي - وهو ابن عم داود - وانضم إليهما صاحب آمد وغير من ذكرنا ، وجمعوا من الأمراء من انتهت قدرتهم إلى جمعه ومن العساكر والتركمان ، وكان داود مطاعا في التركمان ، حتى أن نشابته كانت إذا وصلت حلة منهم ، تبرك بها رجالهم ونساؤهم فاستمدهم واستنجدهم ، فجاءوه على الصعب والذلول ، فاجتمعوا في نحو عشرين ألف مقاتل ، وسار إليهم الشهيد ولقيهم بالقرب من دارا - وهي لهم أيضا - فاقتتلوا قتالا شديدا ، صبر ( فيه ) عسكر الشهيد - وهم نحو أربعة آلاف فارس - لشجاعتهم ، وصبر عسكر الأرتقية لكثرتهم ، ثم انجلت الواقعة عن هزيمة الأرتقية ، فلما انهزموا حصر سرجة فملكها وانتقل إلى دارا فملكها أيضا . فحكى لي والدي ، قال : لما انهزموا سار ركن الدولة داود من المعركة ومعه من سلم من عسكره ، فقصد بلد جزيرة ابن عمر فنهبه وأخبره ، وبلغ الخبر إلى أتابك فسار نحو الجزيرة ، وأراد

أن يتبعه إلى بيار بكر ، فلم يمكنه لضيق المسالك وخشونة الطريق بها ، ومع هذا فجميعها لداود ، فخاف أن يمسك عليه المضايق ويناله أذى ، ثم إنه صالح القوم وعاد عنهم \*

## ذكر فتح حصن الأثارب من الفرنج

لما فرغ الشهيد قدس الله روحه ، من أمر الملوك الأرتقية وصالحهم وأمن ناحيتهم وسار إلى الشام وقد جمع واحتشد وأعد واستعد ، وصمم العزم على الجهاد ، وإجلاء أهل الزيغ والعناد ، وإعلاء كلمة الله تعالى ، وإدحاض كلمة الشيطان ، وتسليط أهل الحق على عباد الطاغوت وأتباع الصلبان ، وقصد إلى حصن الأثارب ونزله ، وأنزل بأهله التذريب ، وعم بلادهم بالنهب والاحراق والتخريب \* وكان هذا الحصن أضر شيء على أهل حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج مابين حزب وحرب ، وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي البأس ، كل معروف بشدة المراس ، إذ هو من أخطر ثغورهم ، وهو من المسلمين في نحورهم ، فتابع الشهيد ، وأدمن نزالهم ، وصب عليهم العذاب من كل مكان ، ولاذ من به من سطوته وبأسه بالجدران ، وعمهم الرعب فصاروا يحسبون كل صسيحة أنى يسلكون ، وسقط في أيديهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم وأحسنوا الذب عنهم وعنه . فلما علم ملك الفرنج الحال ، جمع الفرسان الفرنجية واستشارهم في الذي يصنعون ، وبأي حيلة في دفعه عن بلادهم يدافعون فأما أهل الغرة والجهل فهو نوا حاله ، وبذلوا من انفسهم قتاله ، ظنا منهم أنه كمن تقدم من الملوك ، لا يستعملون غير الفرار من الزحوف ، والاحتماء بعريض الأسوار لاجداد الأسنة ورقاق السيوف ، فعارضهم بعض من حضر من شياطينهم وذوي الرأي والتجربة من طواغيتهم ، وقال : إنني أرى شرار سيكون له ضرام ، ودخانا تحته شواظ ، أليس هذا الغضنفر الذي أثر في طبرية بمفرده ما أثر ، فكيف به اليوم وهو في عدة وعبيد ، ومتطوعة وجنود ، فالقوا قناع التواني ،

ولاتسيروا إلى دفعه سير السواني ( ٢٣ ) ، فلا بد لهذا العارض أن يمتلأ بسيله الوادي ، ولهذه النار أن تعم بشرها النادي ، ولهذا الاقدام أن يصل ضرره إلى الحاضر والبادي ، ولئن لم نلقه بجموع ننتصف منه بها ، ونلحقه بمن تقدمه من مقدمي الجيوش ، ليكون لنا منه يوم عصيب ، وليأخذن للمسلمين منا بأوفر نصيب ، فحينئذ إهتموا بجمع الفرسان والأجناد ، وأحضروا من في أطراف البلاد ، وجمعوا الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ، وأقبلوا في جموعهم المدشورة ، وعساكرهم المجرورة ، وأعلامهم المنشورة ، وصابانهم وبذودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكذودهم ، وجاءوا إليه وقد غص بهم من الأرض جذوبها ، وامتلاً منهم شمالها وجذوبها ، هذا والرعب قد ألقاه الله في قلوبهم فهم منه وجلون ، والخوف قد عم رئيسهم ومرؤوسهم فهم منه خائفون ، يقدمون في مسيرهم رجلاً ويؤخرون أخرى ، ويعتقدون أن المقام بهم أولى وأحرى ، لكن أجالهم تسوقهم إلى مصارعهم ، فهم نحوها يبرزون ، وكأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

فلما تدانى الزحفان استشار المولى الشهيد وزراءه وأمراءه ، فأشار أكثرهم بالعود إلى حلب ، ومطاوله الفرنج إلى أن يتفرقوا ، فقال : هذه خطة خسف تجربتهم علينا ، وتطمعهم فيما لدينا ، لكن الرأي أن نستعين بالله عليهم ونلقاهم ، فإما لنا وإما علينا ، وتأهب للقاءهم ، وسار إلى تلقائهم ، فلم يبعد حتى وافاهم ، ولم يغب الحصن عنه حتى أتاهم ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، واشتد الطعن والضرب بين الطائفتين ، وحمي الشهيد للاسلام وانتصر ، ولبس لأعدائه جلد النمر ، وصال عليهم وزار ، وقال لهم ذوقوا من سقر ، وظل يوسعهم بحملاته حطما ، ويستأصل أركانهم هدا ، ويحرض أصحابه ويدمنهم وبتتابع الحملات عليهم .  
يا مرهم \*

فحيث رأى الفرنج ماقد أحاط بهم من البلاء ، وعمهم من الشدة واللاواء ، علموا أن الهزيمة أصلح لهم من العطب ، وأنى لهم ذلك

وقد عاقت معالقتها وصر الجندب ( ٢٤ ) وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشباعهم من قبل ، وكثر فيهم الأسر والقتل .

فلما تعذرت عليهم الهزيمة ، حموا انفسهم اللثيمة ، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات ، والجلاد عن البنين والبنات ، والآباء والأمهات ، والأخوان والأخوات ، فحينئذ صدقوا القراع ، وأحسذوا المصاع ، وصال ملوكهم وقمامصتهم وفرسانهم وداويتهم وقاتلوا قتال من آيس من النجاة بالانهزام ، فطلبهم بصدق القتال والاقدام ، ولقيهم الشهيد لقاء محتسب للأخرة .

فأثبت في مستنقع الموت رجله  
وقال لها من تحت أخمصك الحشر

ففلق هو وأصحابه الهام ، وبروا العظام ، وأجلت الوقعة عن رؤوس بلا غلاصم ، وأيد بغير معاصم ، وأخذت سيوف الله من أعناق أعدائه أغمادا ، وأدركت خيله منهم ثأرا وأحسنت جلادا ، وأمر الشهيد فيهم بالاثخان ، ومنع من الأسر واعطاء الأمان ، فملات جثث القتلى تلك الصحراء في الطول والعرض ، وتأول قوله تعال ( ماكان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الأرض ) ( ٢٥ ) وقصد ان يملأ قلوبهم رعبا ، ويذعرهم عن البلاد سربا سربا ، فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملا أو ابتغى بالاختفاء بين القتلى موثلا. فلما استمر له النصر ، وآل به الى الظفر الصبر ، رجع الى الحصن فملكه عنوة وقهرا ، وعم كل من فيه قتلا وسبيا وأسرا ، ولقد سمعت من يحكي ان عظام القتلى لم تزل بذلك الأرض مدة طويلة ، ولما ملك الحصن أخرب به ومحا أثره ، وأزال من تلك الأرض ضرره ، كما قال فيه الشاعر حيث يقول :